

حديث عن الدعوة والدعاة (١)

● سألت الشيخ يوسف القرضاوى ونحن بصدد هذا الحوار : من أين نبدأ ؟
● ● قال : نبدأ من القرية ، فأنا ابن الريف وابن الأزهر وابن القرآن . أنا ابن تلك الأسرة القروية البسيطة التى تصحو على الأذان وتنام على كلمات الله ولا يعرف أبناؤها طريقاً إلى التعليم فى غير الأزهر الشريف .

وما أعذب كلمات الشيخ بعد ذلك وهو يتحدث عن رحلته وتعليمه ومسيرة أيامه مع كتاب الله . ولكنه وهو يبدأ فى الحديث عن نقطة التحول فى حياته حين قَدَّرَ له أن يلتقى بدعوة الشيخ حسن البنا فيتحول بها ومعها من التدين الفردى إلى الدعوة العامة ، يختلج صوته وتترنم الكلمات على شفتيه وكأنها تخرج من قلبه ويستترسل فى حديث عذب فيه من الصدق بقدر ما فيه من العمق والإلهام .

وهنا - حين بدأ الشيخ يتحدث عن الدعوة والدعاة - كان لا بد أن يبدأ هذا الحوار .

ولكن الشيخ يوسف القرضاوى تخرج كثيراً وهو يتحدث عن جهوده فى ميدان الدعوة ، وقال : إن الحديث عن النفس شئ ثقيل ، فالله تعالى يقول : ﴿ فَلَا تُزَكُوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴾ (٢) . وظنى أن أعظمنا جهداً لم يقدم لدينه شيئاً يذكر قياساً إلى ما قدمه وقام به أئمتنا وعلماؤنا السابقون . لقد شرفنا الله بالإسلام ، وحقيق بنا أن نكون على مستوى هذا الشرف الرفيع . فهل قدمنا نحن للإسلام ما ينبغى أن تقدمه ؟ هل فعلنا من أجل ديننا هذا ما فعله ويفعله الآخرون لأديانهم ؟

(١) حوار أجراه الأستاذ خلف السليمان فى البحرين ، ونشر فى مجلة « المسلمون » فى ٦ من شهر رجب سنة ١٤١٢ هـ (١٠ من شهر يناير سنة ١٩٩٢ م) . (٢) النجم : ٣٢

● قلت : أنت تنكر نفسك يا شيخ ، فأنت تعيش فى ساحة الدعوة منذ خمسين سنة ، وقد أثريت المكتبة العربية بشئ غير قليل من الكتب الأمهات .

● ● قال : بل هذا جهد المقل . فبرغم كل ما قدّمته من كتب إلا أن لدىّ منها عدداً لم يكتمل . وبعضها بدأت الكتابة فيه قبل عشرين سنة ولم أكمله إلى الآن . ولدىّ مشروعات متعددة لأكثر من كتاب ولكن وقتى وطاقتى لا يسعفانى لإنجازها .

● قلت : إن كتبك الموجودة تلقى رواجاً كبيراً وتسد جانباً هاماً فى المكتبة الإسلامية فكيف تراها ؟

● ● قال : هذا من فضل الله تعالى وتوفيقه فله وحده الشكر .. أما الفضل الأكبر ففى انتشار هذه الكتب وإعادة طبعها مرات متعددة إلى حد أن كتاباً مثل « الجلال والحرام » طبع أكثر من أربعين مرة ، وقال البعض عن كتاب « فقه الزكاة » إنه كتاب القرن فى الفقه الإسلامى .

● قلت : لقد تنوعت هذه الكتب ما بين التفسير والحديث إلى الفقه والأصول والدعوة والفكر الإسلامى ، ولكنى قد أذكر هنا كتاب « ثقافة الداعية » لأننا أحوج ما نكون إلى هذه الكتب المتزنة التى تتحدث عن الدعوة والدعاة فكيف ترى أبعاد هذه القضية من خلال واقع الصحوة الإسلامية اليوم ؟

● ● قال : يحتاج الداعية إلى عدد من الصفات حتى يستطيع أن يقوم بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بطريقة تؤدى إلى بلوغ الهدف . ولكن ، ما هو الهدف من الدعوة ؟

الهدف هو هداية البشر إلى الإسلام وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، والأخذ بأيدي الناس إلى الله سبحانه وتعالى لحشدهم فى ساحة الإسلام الصحيح حتى يرتبطوا بهذا الدين الحق علماً وعملاً وخلقاً وفكراً وسلوكاً . ذلك ما نريده على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والأمة كلها . وتلك مهمة جليلة

لا بد أن يستشعر الداعية خطورتها وأهميتها معاً ، مما يستوجب التهيؤ لها بكل الأسلحة الشرعية والفكرية والحلوقية جميعاً .

● قلت : تلك مواصفات صعبة ؟

● ● قال : نعم . إنها فى صعوبة المهمة الكبرى نفسها . إذ أن الداعية لا بد أن يتمتع بميراث النبوة أو بشئ منه ابتداءً من الرحمة بالصغير والتقدير للكبير وانتهاءً بالاستعداد للإجابة عن كل سؤال من الناس : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

* *

شباب الدعوة

● قلت : هل يتمتع شباب الدعوة أو شباب الصّحوة بهذا الميراث العظيم ؟

● ● قال : على شباب الدعوة مراجعة أنفسهم وعليهم أن يتواضعوا قليلاً وأن يستفيدوا ممن قبلهم من الصحابة والعلماء . عليهم ألا يستعلوا على أحد وألا يزكّوا أنفسهم ، وبحسب الإنسان من الشر أن يحقر أخاه المسلم وأن يسيئ الظن بالآخرين . إن الاجتهادات تختلف ، والساحة تتسع للجميع ، ومن اجتهد فى أمر وبذل وسعه فيه فهو دائر بين الأجر والأجرين .

● قلت : ولكن شباب الصّحوة أو شباب الدعوة هؤلاء يواجهون معوقات كثيرة ؟

● ● قال : نعم إن المعوقات أكثر من أن تحصى ، وهى معوقات خارجية وداخلية أيضاً .

(١) التوبة : ١٢٨

● قلت : ما هي المعوقات الخارجية كما تراها ؟

●● قال : هناك مخططات تتآمر على الإسلام ومن أهمها وأظهرها المخططات اليهودية والصليبية والشيوعية والإلحادية والماسونية والعلمانية . وقد أسفرت هذه المخططات كلها عن نفسها بشكل فاضح مع بروز الصّحة الإسلامية في السنوات العشرين الأخيرة . وهدفها واضح بالطبع وهو إجهاض هذه الصّحة وتعويق مسيرتها وتخويف أولى الأمر منها .

● قلت : وكيف يمكن مواجهة هذه المؤامرة الخارجية الشاملة ؟

●● قال : بالتصدي لها ، ولكن من خلال عملية عقلانية شاملة حتى يفهم الجميع حقيقة هذه الصّحة . وفي هذا الإطار فأتأ أدعو دائماً إلى الحوار مع غير المسلمين على مستويات متعددة :

أولاً : على المستوى الديني مع رجال الأديان الآخرين لنبيّن لهم حقيقة الإسلام ، وأن بيننا وبينهم مجالاً مشتركاً يمكن أن نعمل فيه معاً ، ضد الإلحاد والانحلال .

وثانياً : على المستوى الفكري مع المستشرقين والمفكرين الأجانب لأنهم أقدر على الحوار العقلي .

وثالثاً : على المستوى السياسي مع من يصنعون القرار في الغرب .

والهدف من هذا الحوار المتصل مع هذه الحلقات الثلاث هو أن نبيّن لخصوم الإسلام حقيقة هذا الدين القيم ، وأن نرد على أباطيل المبطلين وأكاذيب المفترين ، لأن كثيراً مما يُنسب إلى الإسلام ليس من الإسلام في شيء ، فهم يريدون أن يأخذوا من أحوال المسلمين - الذين يجهلون الإسلام - حُجّة على الإسلام نفسه . وهنا ينبغي أن نقول : إن المسلم ليس حُجّة على الإسلام ولكن الإسلام حُجّة على المسلمين .

* *

المعوقات الداخلية

● قلت : هذا عن معوقات الدعوة من الخارج ، فماذا عن معوقاتنا الداخلية؟

● ● قال : إن هذه المعوقات الداخلية ليست أقل خطراً من المعوقات الخارجية ، وإن كان بعضها أثراً من آثارها . ومن أهم هذه المعوقات عقوق بعض الحكام وعملهم ضد الدعوة الإسلامية . فمن هؤلاء الحكام من لم يترب على الإسلام ، ومنهم من نشأ في أحضان الشيوعية والصليبية . وهؤلاء يكرهون الإسلام أو يعادونه لأنهم لا يعرفون عنه شيئاً ، ومن جهل شيئاً عاداه . ومن الحكام من لا يكرهون الإسلام ولكنهم يخافونه . وبعد هذا - أو قبله - فإن علينا أن ننظر في أنفسنا ، ونقوم بما يسمى بالنقد الذاتى ، لأن فينا أخطاءً ، ونحن لسنا ملائكة مطهرين ولا أنبياء معصومين . نحن بشر نجتهد فى خدمة الإسلام ولكننا قد نخطئ ، ولا بد من أن نقوم أنفسنا من داخلنا .

● قلت : قد تكون المشكلة بحق هى هؤلاء الحكام الذين لم يتربوا على الإسلام ، مما يوجد بينهم وبين العلماء صراعاً على نحو ما . فكيف ترى هذه العلاقة بين العلماء والحكام ؟

● ● قال : الصراع بين العلماء والحكام فى بعض البلدان ليس صراعاً مفتعلاً ، ولكنه حقيقة واقعة ، خصوصاً مع هؤلاء الحكام الذين يضررون العداة لا للعلماء فقط ، بل للإسلام نفسه . ومثل هؤلاء الحكام اللادينيين قد يسمحون للشيوعيين والكفرة بكل شئ ولا يسمحون للمسلمين بأى شئ . فكيف يمكن أن تكون العلاقة مع هؤلاء .

ولكن هناك نوعاً آخر من الحكام الذين يعرفون حق الله فى شعوبهم ، وهؤلاء لا بد أن تقوم بينهم وبين العلماء جسور من الود والتفاهم والثقة ، بحيث يشعر الحاكم أنه فى حاجة إلى نُصح العالم ، ويشعر العالم بأن اقترابه من الحاكم فيه منفعة لدين الله . لا بد للعلاقة من شكل يحفظ للعلماء كرامتهم بحيث لا يُنظر إليهم على أنهم من المتهافتين على أبواب السلاطين أو المنافقين لهم . وقديماً قالوا : « خير الأمراء من يزور العلماء ، وشر العلماء من يزور الأمراء » .

● قلت : ولكن ما أندر هؤلاء الحكام الذين يعرفون للعلماء أقدارهم ؟

● ● قال : المفترض أن تكون هناك علاقة طيبة بين العلماء وولاية الأمر . ومصدر هذا التقدير يأتي من أن الأصل في الإسلام أن يكون الحاكم عالماً ، فقد كانوا يشترطون قديماً في الإمام والخليفة والقاضي أن يكون مجتهداً وليس مجرد عالمٍ فقط . وهكذا كان الخلفاء الراشدون كلهم من الأئمة المجتهدين . وفي مرحلة تالية قيل : إنه يجوز ألا يكون ولي الأمر مجتهداً بل ممن يستعين بالمجتهدين . والمعنى هو أنه يجب على الحاكم أن يتودد لأهل العلم ويقربهم إليه ويزورهم في بيوتهم ويطلب منهم النصح ويسمع لمواعظهم ويستشيرهم في أموره . وهذا كله من دلائل قوة الحاكم وصلاحه واستقامته وفضله . ولكن الذي يحدث الآن - لأسباب ليس الآن مجال الخوض فيها - أن العلماء أصبحوا في جانب ، والحكام في جانب آخر ، وليس ثمة وسيلة للتواصل بينهما ، الأمر الذي يفضي إلى كثير من التناقض وسوء الفهم . ومن هنا فلا بد من أن تكون هناك وسيلة للحوار ، ويتحقق هذا بمبادرة من الحكام أنفسهم ، لأن العالم لا ينبغي له أن يسعى إلى الحاكم إلا ناصحاً ، والمناصحة هنا ليس معناها التشهير والمداهنة ، بل إبلاغ كلمة الحق بالحكمة لا بالضعف ، وبالطريقة التي تؤثر في النفس أبلغ التأثير . يقول رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة » ، ويقول : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً - ومن هذه الثلاث : أن تناصحوا من ولادة الله أموركم » .

● قلت : هذا حديث طويل عن هموم الدعوة والدعاة فإلى أين ينتهي ؟

● ● قال : لعله ينتهي إلى الخَيْرِ إن شاء الله بإعلاء كلمته في الأرض .

* * *